رحلة فى ديار الشـــام

فى القرن الثامن عشر (الثانى عشر الهجرى)

(الحلة الذهبية فى الرحلة الحلبية) [1]

لمصطفى البكرى الصديق

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

كان الداعى إلى هذه الرحلة ، رغبة الشيخ مصطفى البكرى فى زيارة بغداد فيقول فى مقدمة رحلته « كان كثيراً ما يختلج فى بالى ، فيهيج أشواق وبلبالى ، زيارة بغداد ورجالها الموالى . فأصد عن الشرب من نهر دجلتها وقربانه ، والغرام يزيد إلى علم الشرق الفريد وصاحب المذهب المذهب السعيد والكاظم [2] وولده الوحيد ، السامى كل منهم على أقرانه ، وغيرهم من أعيان ، أرباب عيان » الخ . . ويخص من الأعيان سلطان الأولياء سيدى عبد القادر الجيلانى [3] ، وكان قد انتسب إلى طريقته وتراءى له فى المنام فعزم على التوجه إلى حلب ومنها إلى بغداد ، ولكن زوج والدته منعه من ذلك مخافة الحر ، وخشى تعرض العربان له بسوء . فعدل عن زيارتها ، ورأى أن يتوجه من حلب إلى زيارة مقام سلطان الزهاد ابراهيم بن أدهم [4] فى جبلة ومنها إلى طرابلس الشام فبيروت فبيت المقدس . وكان رفيقه فى الطريق السيد مصطفى بن عبد الرحمن المنينى [5] وأخاه لامه أحمد .

وقبل ما تحرك خاطر الشيخ ، لتلك المنازل العواطر ، سأل الشيخ أحمد ، فكاشفه قبل الاستشارة وصرح وما اعتنى بالإشارة .

وجاءه فى هذه الأثناء الأخ الشيخ مصطفى بن عمر الخلوتى وطلب للولد القلبى الشيخ اسماعيل الحرستانى بالدعوة والإرشاد ، ولبس الكسوة على العتاد ، فأذن له .

ثم كرر الشيخ الاستخارة فى السير ، موقع الإذن بالسير يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رجب سنة [١١٢٨ هـ — ١٧١٥ م] فتوجه وبات فى قرية (القصير) ورافقه بعض الإخوان مودعين ثم سار إلى أن وصل (القُطيفة) ومنها إلى (قارة) ومنها إلى (النَّبك) المشتية أهلها فيها والمصيفة ، ثم إلى (حسية) ومكث يومين ومنها إلى حِمْص [1] وهو بلد يذكر ويؤنث . وأقام فى جامعها الكبير ، وزار من بعيد مقام خالد بن الوليد ، مات بحمص سنة إحدى وعشرين [٦٤١ م] .

ويقول الشيخ « ولم يعشم لنا نصيب ، بدخول مدينة حمص المحبوب ، تكويناً ومزدرعاً وأمواهاً ، لأن الخراب عمها حتى فيها ظهورها تناهى ، وكان أكثر خرابها من الموالى [2] الذين من وآلاهم لم يوال الموالى ، على أن فيها من المزارات والسادات الكثير ويغلب على أهلها البلاهة والتغفل [3] مع الجد والتشمير ، ولقد دخلت جامعها الكبير فرأيته آيل إلى التعمير ، فصليت فيه الظهر والعصر ، بنفر غير كبير » .

وفارق حمص فى الصباح ، ولم يسر غير قليل حتى بزغت الشمس وإذا بخيول كأنها سيل يسيل من عرب يفسدون فى الأرض دون إصلاح ، لا يعرفون صلاحاً ولا سلاحاً حتى فى صلاح ، يرون نهب أموال الخلق مغنماً ، وسلامة الخطار من شرهم مغرماً ، فانعمت القافلة كالحرف المشدد ، وانحازت القافلة إلى جهتهم بالرأى المشدد ، فصرف الحق قلوبهم وقلوا [4] وبعد الكثرة والاجتماع تفرقوا وقلوا وثم الشيخ قرب انصرافهم

---

(١) مصطفى البكرى الصديق (١٠٩٩ هـ — ١١٦٢ هـ ، ١٦٨٧ — ١٧٤٨ م) . مخطوط فى خزانة الكتب الخالدية بالقدس .

(٢) وإليه تنسب الكاظمين وهى ضاحية من نواحى بغداد ، عدد سكانها أربعون ألفاً ، وفيها مقام الكاظم وولده .

(٣) هو أبو محمد الجيلى الحنبلى ولد بجيلان سنة (٤٩١ هـ) وتوفى (٥٦١) القطب الكبير .

(٤) توفى (١٦١ هـ) ودفن فى جزيرة من جزر البحر فى بلاد الروم مجاهداً .

(٥) نسبة إلى منين وهى قرية خضرة نضرة تحاكى جبل قاسيون . إليها تنسب الجوز المنينى لرقة قشره ورياش قلبه . وإليها ينسب الشيخ أحمد بن على المنينى مؤلف كتاب « الإعلام بفضائل الشام » .

---

(١) كورة بالشام مشهورة ، أهلها يمنيون ، قال سيبويه هى أعجمية لذلك لم تنصرف وقد تذكر . والعرب تقول « أظل من قيسى فى حمص » .

(٢) قبيلة الموالى ، قبيلة كثيرة العدد تضرب فى صحراء سوريا ، وفخاطبون كثيرة ، وإليها ينتسب آل العابد فى دمشق وآل طوقان فى جبل نابلس ، وآل أبو ريشة فى حلب .

(٣) هذا قول عاجلا يعتمد على أساس ولعل ذلك من آثار اختلاف القيسيين واليمنيين .

(٤) قل القوم كسرهم وهزمهم . تقال القوم انكسروا . وقوم قل أى منهزمون .

رأسحة قرنفل فقال « قُرِن فلٌ ريحهم » فولوا ، ولم يحصلوا على ما أملوا ، وأصابهم من الله ضيراً ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وعند قرب جسر الدستن كرف [1] ورداً ، فقال الشيخ وراد فإذا قافلة تكد كداً » .

وفي قرية الرستن مرقد الإمام أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطاوي [2] ، والمذكور له مشيخة على الشيخ ، فقرأ له الفاتحة . وقرب العصر وصل حماة ، ونزل في جامع مطل على العاصي . وسأل الشيخ من أهل البلد عن سبب خراب ديرتها ، فقالوا له قبيلة العرب الموالي التي تنفر الطباع من سيرتها . وقد أشجاه صوت نواعيرها السامي ، وأبكاه سراً إذ أنكاه جهراً تذكار مربع مربعهم وطنه الشامي ، غير أن نواعيره صغيرة ، وهذه كثيرة كبيرة ، وأنشد بيت الصلاح الصفدي :

إبدى لنا الدولاب قولا معجباً لما رآنا قادمين إليه
إني من العجب العجيب كما ترى قلبي معي وأنا أدور عليه

قال في القاموس : العاصي العرق لا يرقأ ونهر حماه واسمه الميماس والمقلوب ، لقب به لعصيانه فإنه لا يسقي إلا بالنواعير .

وسار إلى المحطة ونزل على العاصي ، قرب ناعورة تسقي مروجاً أنيقة فتنبت النبات الحسن النهج والطريقة ، وفي الصباح سار يقطع البطاح ، ويوصل الليل بالنهار من السهاد ، وكان قد وصل إليه كتاب من بعض الأحباب ، صدره بـ :

يا نسيماً هب من وادي قبا خبرينا كيف حال الغربا
كم سألنا الدهر أن يجمعنا مثل ما كنا عليه فأبى

وتوجه نحو (المرة) ، وهي على مرحلتين من حلب فبات بها ، ثم سار إلى قرية (سرمين) المحتوية على الألوف لا المئين ، ونزل في جامعها الحصين وسار ليلا قاصداً حلب وشهباء ، وأصابه عطش لقيط وحر ، حتى وصل سبيل المرأة المرحومة ، فشرب وشربت القافلة ، وكان معه أخوه لامه أحمد فسبقه معلماً والده الحاج ابرهيم الطويل ، فأخذه إلى بيته في القلعة ، وكانت تصعب عليه الطلعة ، وبعد ثلاثة أيام نزل إلى خلوة في العادلية . وكان الوصول إلى حلب في أوائل شعبان المبارك .

وبعد أيام جاءه رفيق السفر السيد مصطفى المنيني يرجوه بالحاح أن يمدح مفتي الديار الحلبية أبي السعود الحكواكبي . فتردد الشيخ مراراً من الظهور ولكنه نزل على إصرار رفيقه فقال :

سماء الدنا قد زينت بالكواكب كما زينت الغبرا ببيت الحكواكبي
أناس لهم في ذورة المجد منزل يجل ويعلو فوق كل المراتب الخ

وقد سر بها المفتي ، ودعا الشيخ إلى داره ولما استقر به المقام جاءه عمر أفندي النقيب وسأل عنه ، وعن ابن عم الشيخ ، وسبب تغير مزاجه ، وكان قد اجتمع به لما أتى مع أعيان الشام للاقلالة الشيخ مراد ، فأجابه أن هذا الأمر أخبر عنه الشيخ عبد الغني النابلسي . ثم استفسر عن قضية الدراهم التي طلبت منه بعزمان ، فلخص له القصة وأنها كانت زوراً وبهتاناً ، ومن جملة الشهود على أنها باطلة الشيخ عبد الغني ، وأعيان الشام وقد أعلم الشيخ المذكور الوزير بالقضية في مكتوب كبير فجاء العفو ، وقبول شهادته . ولم يجتمع الشيخ البكري بالمفتي إلا في العيد بعد الصيام ، وكان يتردد وهو في حلب على تكية الشيخ أبي بكر بن أبي الوفا ، وليس في خارج حلب أنزه من تكيته وأعجب ، ولذا قيل فيها صالحية [1] حلب واصطحب معه شيخ التكية ، الشيخ علي ، وتردد عليه مراراً ، وتمرض هو والدادة [2] علي ، وعوفي المذكور وتوفي الدادة . وطلب الشيخ مصطفى المنيني رفيقه في الطريق الرجوع ، فكتب الشيخ كتاباً إلى الشيخ اسماعيل الحرستاني وطلب منه أن يسلم له على الحاج ابرهيم الدكاني ويستدعيه فلما حضر ، أذن للشيخ مصطفى بالسفر .

وممن زاره في حلب الحاج علي الكلرجي « وطلب منه

---

(١) ثم .

(٢) إليه تنسب الطريقة البسطامية ، من رجال القرن الثالث (٢٦١ هـ) مقامه في جبل بسطام . وله في القدس زاوية وكذلك في الرملة . وإليه ينتسب آل النعيمي في الرملة وغزة ولد . وقبره شبيه طريقته في الرملة .

(١) الصالحية المعروفة بدمشق ، نزلها بنو قدامة لما هاجروا من جماعيل (جبل نابلس) في أيام الحروب الصليبية .

(٢) الدادا كلمة محرفة عن كلمة (داية) ، أطلقت في عصور العباسيين على المربي والمربية . وفي كتاب أخبار أبي نواس الجزء الأول لابن منظور صاحب كتاب لسان العرب ، ذكر لرجل قال أنه كان (دايني) ويحتمل أن تكون (الدادة) محرفة عن الددا . والددا معناه اللعب ولأن المربي والراعي للطفولة شأنه أن يأخذ الطفل باللعب واسمه ددو وتصحفت فاصبحت دادا ، والدادة في التركية المربي وهي من المصطلحات الصوفية .

الخلوة ، ورجا الذكر يوم الفتوة » فأنا له مأموله ، ولستصحبه معه إلى (الخلوية) وحضر ذكر السيد محمد ، خليفة الشيخ قاسم الخانى وكان المنشد الشيخ حسن ، وكان ينشد أبيات سيدى أحمد ابن عبد الله الإسكندرى ولما وصل إلى قوله :

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما حسن العفو

فبكى وأبكى الحاضرين . وكان الشيخ يتردد على هـذا المجلس لالتماس البركة مستعملا الذكر القلبي الخالى عن الحركة ويقول عن أهل حلب والعهدة عليه « ورأيت فى هـذه الكرة أن أهل حلب عندهم رقة وخلاعة بالمرة ، وأنهم أخلع من أهل الشـام للعذار[1] وأشجع فى تناول أقداح الغرام لوجد ثار ، وأهل الشام أجلد فى السير وأخلد فى طلب المير[2] لأرض الخير ، فإنى كنت أراهم عند سماع الأشعار الدينية فى رمضان يبكون ولدى قراءة القرآن لهم خشوع وسكون » (١)

ولما سمع زوج والدته الحاج ابرهيم الطويل بنية الشيخ زيارة بغداد منعه وأقسم عليه ، خوفاً من الحر ومن شر العربان . فعزم على زياره سـلطان الزهاد ابرهيم بن أدهم . فتوجه فى منتصف شوال إلى تلك المحال ، وسار إلى قرية (كفتين) وهى من قرى طرابلس الشـام ، وهم ليسوا من أهل السنة ، ينتظرون نزول الحاكم بأمر الله ، ووصل (جبلة) وزار مقام ابرهيم بن أدهم وأقام هناك ذكراً .

وسار فى اليوم الخامس والعشرين من رجب ومر على طرسوس ، ورأى قلعة ارواد ، وجاء الرفاق منها بزاد ، وشاهد قلعة المرقب المنيعة ، وبات قريباً من البلد فى مكان نزيه يقال له بركة البداوى . وقدم إليه الشيخ مصطفى القلا ونزل مدرسـة الحدادين ثم خلوة الجسر المكين ، ثم القادرية البهية ، واحتفل بها عشر ذى الحجة . وكان الشيخ عبـد الله الخليلى المهتدى يتردد عليه ، ومدرسـة الحدادين قريبة من دار السيد مصطفى القلا ، وانضم إليهم الحاج محمد بن الحـاج موسى العطار ، ثم الشيخ مصطفى الرفاعى ودعاه لداره ، وطلب الطريق وتبعه الشيخ عامر الصعيدى ، وكانا لا ينفكان عن قرائه الأوراد الأول فى تكيته ، والثانى فى (المنية) فى مسجده عند جماعته .

وكان جناب الصديق السيد محمد التافلاتى نجل مولاى أحمد (١) وهو ابن عم مولاى اسمـاعيل ملك المغرب ، ينتهى نسبهم إلى سيدى عبد الله المحض ، قد ورد إلى طرابلس من بيت المقدس ، ولم يكن الشيخ قد اجتمع به قبل ذلك ، فأرسل يطلب الاجتماع بالشيخ فسر به ولـكنه لم يطل الإقامة ، وكرر الزيارة . وذهب الشيخ بعد ذلك إلى قرية (المنية) لزيارة مقام النبي يوشع ، وقرائه الأوراد ، واصطحب معه زمرة من أفاضلها كالسيد على ابن دبوس ، وأخيه السيد محمد والسـيد أحمد المفتى ، ومن بيت السيرى ، الشيخ أبى حامد المصرى ، ومن أولاد السـيرى الشيخ عمر .

وأكثر الشـيخ التافلاتى التردد على الشيخ ، وكذلك الشيخ عبد الله ، وتردد الشيخ عليه فى المدرسة التى نزل منها فى سوق الحدادين ، وتوجه للمنية غير مرة وبات لدى الشيخ عامر الصعيدى . وورد عليه كتاب من الشيخ أحمد الميقاتى بالقدس ، يبلغه حلول دار السلامة بسلامة ، وضمنه سؤال طويل ، عن بيت لسيدى عمر الفارض الذى يقول فى مطلعه : (أروم وقد طال المدى ، منك نظرة) فأجابه برسالة سماها [رفع السير والردا عن معنى قول العارف أروم وقد طال المدى] . ثم كروا على زيارة يوشع بن نون ، للوداع ، وصحب كل واحد منهم زاد قناق ، وجاء السيد محمد بن أحمد التافلاتى بصحن كبير من المغربية ما لها نظير فأكلوا بعد الشبع . وبعد العشاء أقاموا مجلس ذكر وكان الحادى الأخ الحاج ابرهيم الحرستانى ، وغيره ممن صحب الشيخ فى سيره الربانى .

وفى أول جمادى الثانى عزم الشيخ على التوجه للقدس ، ولم ينشلج صدره إلا للتوجه فى البر دون البحر ، فبات ليلة الوداع عنده الشيخ مصطفى بن الشيخ سليمان الرفاعى ، والسيد مصطفى القلا ، والشـيخ عبد الله وجماعته ، وكانوا قد تجمعوا فوق الثلاثين ، وتوجه الشـيخ إلى بيروت وقطع نهر الديمور (٢) ، ونزل فى جامعها الـكبير المعمور ، ودعاه الشيخ مصطفى الحجيجى الشامى وس بعد الظهر بصيداً ، وقطع جسر نهر الـكلب (٣) ليلا ،

(١) هو مفتى الحنفية فى القدس (١١٩٢ هـ)

(٢) نهر الصامور جنوبى بيروت ، ونهر الـكلب شمالى بيروت ولعل الشيخ اهتم بالسبع .

(٣) هو نهر النامين

أقام فيها خمسة عشر يوماً ينتظر السير براً فما تيسر إلا بحراً ، فركب منها نحوة وضل قبيل الغروب عكا ، ونزل فى جامع البحر ، واجتمع فيها بصديقه القديم الشيخ أحمد ، وسار بعد العشاء مع القافلة نحو جينين وقطع نهرى النعائم (١) والمقطع ثم أتى جينين وبات فيها ليلتين عند الحاج عبد الرحمن وفى صبيحة الليلة الثانية سار إلى نابلس ، وبات عند أولاد سيدى يعقوب (٢) ، وفيما هو هناك وفد عليه السيد محمد السلفيتى بغير اتفاق فسر به . وقرأ له الموشح الأول الذى نظمه ومطلعه :

إن رمتموا تشربوا الحيا ... وتسقوا من دنان ريا
والميت يغدو بالقرب حيـــا ... وفى حبيب الحشـــا تباهوا
فشـــنفوا سمعى وقولوا ... الله الله الله يا هـــو

والموشح الثانى ومطلعه :

بارق القرب حين لاح لعينى ... غبت عنى وزال عنى أينى
وانمحت ظلمتى بذاك وغينى ... وشهـدت الحبيب فى المحراب

وقد بكى السلفيتى عند سماعهما . وارتأى عليه المنام عند المحب الشيخ خليل الحارثى خليفة الشيخ محمد الزطارى ، فبات فى خلوته التى فى المارستان (٣) ليلتين ، وبعد الشمس سار إلى قرية (حجة) ، فتلقاه أهلها بالترحاب ، ونزل فى الخلوة المرفوعة ، وبات ليلتين ، وتوجه عشـية النهار إلى (دير أسطيا) ، ورأى مجذوبها الشيخ خاطر فى بعض القرايا خاطر . وكان الشيخ وهو فى نابلس أرسـل للاخوان فى القدس ، خبر قدومه على الديار ليأهبوا له محلا للنزول ، وبعد صلاة المغرب سمع عن بعد صهيل خيل ، ورأى هجاجة ، فسـأل فقيل إخوان صفا من سكان القدس ، وكانوا السيد أحمد الموقت ونور الدين الهوارى ومعه جم من الإخوان فسر بهم كثيراً . واقترح بعضهم زيارة سيدى على ابن عليل (٤) ، فوافقوا وكدوا السير إلى (كفر ثلث) واجتمع الشيخ فيها ، بالشيخ على الرابى ، ووصل المقام بعد أن دخل الغابة (١) ليلا خوفاً من الطير (٢) وجاءه هناك الشيخ رضوان الزاوى ومعـه كبـكبة (٣) من أهل الود ، فبات ليلة طيبة ، وسـار على طريق الطواحين وأقال لشدة الحروبات فى (الزاوية) عند رضوان ، ودعاه إلى (مسحا) (٤) الشيخ طه ، ومنها إلى (بديا) ثم (سرطا) فتلقاه بها مصلح بن صلاح الدين وزار الولى المشهور فيها الشـيخ عبد الله . ثم أتى (كفرعين) ونزل عند مقام العيص ، وفى أواخر جمادى الثانى دخل بيت المقدس ونزل فى الخلوة البيرمية الفوقانية(٥) . وتردد على دار الشيخ نور الدين الهوارى . وفى أوائل شعبان وصل جناب الشيخ محمد الخليلى (٦) وصحبته ، الشيخ اسماعيل بن جابر بن رجب النبيل بن أحمد البغدادى ، وكان أرسل للشيخ محمد من حلب كتاباً صدره بقصيدة يعارض فيها قصيدة شيخه ، الشيخ عبد الغنى النابلسى :

صرفنا عنانَ العزم عن غيرها صرفاً
وقنـا إليهـــا نحتسى خمرها صرفاً

كما أرسل له من طرابلس الشـام ثلاثة كتب (٧) ضمنها أكثر من قصيدة . وانتقل فى أول رمضـان من البيرمية إلى خلوة جار الله (٨)

(البقية فى العدد القادم)

أحمد سامح الخالدى

(١) كانت هذه المنطقة مكسوة بالأشجار خطرة المالك .
(٢) الطير والقشاوم .
(٣) الجماعة .
(٤) قرية جنوب غربى سرطا .
(٥) نسبة إلى الأمير بايرام جاويش بن مصطفى توفى (٩٤٧ هـ)
(٦) مفتى الشـافعية بالديار القدسية ، وصديق الشيخ البكرى وأسـتاذه ورفيقه فى الرحلة المصريه ، صاحب الفتاوى الخليلية توفى (١١٤٩ هـ) .
(٧) يستدل من كثرة الرسائل والكتب التى كان يرسلها الشيخ من أمهات المدن أو يتلقاها ، على انتظام سير القوافل ووجود ما يشبه نظام بريد .
(٨) خلوة مقدسية كانت تعرف بأبى اللطف الخلوتى ، خرج منها علماء ومفتون .

اطلب كتاب
تولســـتوى

(١) هو نهر النعامين .
(٢) هذا المكان هو جامع شرقى نابلس ويعرف بجامع الأنبياء وبه بئر نبع . وهو غير بئر يعقوب قرب قرية عسكر .
(٣) قرب الجامع الكبير بنابلس .
(٤) يقع مقامه شمالى يافا ويعرف بسيدنا على ، وهو أبو الحسن المشهور عند الناس بابن علم . ونسبه يتصل بسيدنا عمر بن الخطاب توفى (٤٧٤ هـ) عمر مشهده الحالى سنة (٨٨٦ هـ) عمره أبو العون الغزى شيخ القادرية